التعريف بكتاب قيم

مقدمة لتاريخ العلم [1] ، تأليف جورج سارطون ، الجزء الثالث صفحاته ٤٦ + ٢١٥٥ ، نشره معهد كارنيغي في واشنجتون ، طبع في بلطيمور (في الولايات المتحدة) عام ١٩٤٧ و ١٩٤٨ .

التعريف بالمؤلف

جورج سارطون [2] بلجيكي الأصل ، ولد في غان [3] عام ١٨٨٤ وتخرج في جامعة غان عام ١٩٠٦ برتبة دكتور في العلوم . وفي عام ١٩١٩ هاجر إلى الولايات المتحدة ثم تجنس بالجنسية الأميركية عام ١٩٢٤ . وقد زار الدكتور سارطون الشرق الأدنى عام ١٩٣١ — ١٩٣٢ للتعمق في درس العربية والاسلام. ولما كان في بيروت عام ١٩٣٢ ألقى في كلية المقاصد الاسلامية محاضرة حول « مقام العرب في العلوم الطبيعية » . وهو مؤسس مجلة إيزيس Isis منذ عام ١٩١٢ وسواها من المجلات التي تبحث في تاريخ العلوم والفلسفة ، وقد ألف كتباً كثاراً أشهرها وأجمعها « مقدمة لتاريخ العلم » وقد صدر منه الى الآن ثلاثة أجزاء .

الجزء الأول — من هوميروس الى عمر الخيام (طبع ١٩٢٧) .

الجزء الثاني — من الرّبّان ابن عزرا الى روجر بايكون (طبع ١٩٣١) .

---

(1) Introduction to the History of Science, Vol. III, in 2 parts, by George Sarton, published for the Carnegie Institution of Washington, The Williams & Wilkins Company, Baltimore (Mass, U. S. A.) , 1947, 1984 .

(2) George Sarton.

(3) Ghent.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجزء الثالث — القرن الرابع عشر ، وهو الجزء الذي نعرّف به في هذا المقال .

ولقد تولى جورج سارطون المحاضرة في جامعات ومؤسسات كثيرة ونال رتبًا علمية متعددة وانتخب عضواً في كثير من المجامع العلمية العالمية مما لا فائدة كبرى من تعداده ، فالرجل عالم كبير انصرف الى التأليف العالمي مما لا يتوفر عادة إلا للقلائل في تاريخ الانسانية . ومع أن الكتاب في الحقيقة مجموع جهود لنفر غير قليل من العلماء المساعدين فإن خطة التأليف وسياسة الاتجاه والقيام بالتنسيق راجع الى المؤلف وحده . وجورج سارطون مخالف لكثيرين من المؤلفين في هذه الموضوعات ، فهو منصف للشرق وللعرب والإسلام إنصافاً كبيراً في كتبه .

التعريف بالناشر

وناشر هذا الكتاب بأجزائه « مؤسسة كارنيغي في واشنجتون » ، وهي إحدى المؤسسات العلمية للبحث والتأليف من تلك التي أقامها أندرو كارنيغي (١٨٣٥ — ١٩١٩) . أما مؤسسة واشنجتون نفسها فقد أسسها كارنيغي عام ١٩٠٢ ووقف لها خمسة وثلاثين مليوناً من الدولارات .

هذه المؤسسة ، كأخواتها الكثيرات في فروع البحث المختلفة وفي أمكنة كثيرة من اوربة واميركة ، تعمل على تشجيع البحث والتوصل الى الاكتشافات ونشر المعرفة لفائدة الانسانية .

التعريف بالكتاب

يتناول هذا الجزء الثالث من كتاب « مقدمة لتاريخ العلم » تأريخ العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية وما يتفرع منها في مدى قرن كامل هو القرن الرابع عشر الميلادي (والقرن الثامن للهجرة) . ولقد قصد المؤلف أن يكون هذا التأريخ موجزاً ولكن شاملاً (ص ٨) . ثم يثير المؤلف نقطة جديرة بالبحث وخصوصاً عند « تأريخ » أوجه التفكير الإنساني . يقول : « هنالك من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعد القرن الرابع عشر الميلادي جزءاً من العصور الوسطى (العصور المظلمة) ، او يعدّه على الأصح نقطة التحول فيها ؛ بينما هنالك من يرى أن هذا القرن هو بدء عصر الانبعاث العلمي او هو العصر السابق على عصر الانبعاث مباشرة » . وهنا يبدي سارطون ملاحظته الحكيمة فيقول : إن كل قرن (وخصوصاً فيما يتعلق بالحركة العلمية والفكرية) هو « عصور وسطى » بين كل قرنين آخرين (ص ١١ ـ ١٥) ، إذ يكون اكثر رقياً مما سبقه وأدنى مما لحقه .

ومع الصفحات الأولى الممهدة (ص ٣ ـ ٣٣) للكتاب كله (ص ٣٥ـ٢٢١٥) تبدأ الناحية الشرقية العربية الاسلامية بالبروز ، وهي الناحية التي ستحجز انتباهي في هذا « التعريف » لأهميتها المطلقة في القرن الرابع عشر ، ولأهميتها النسبية بالاضافة الينا ، ولأنها المخرج الوحيد للايجاز في التعريف بكتاب صفحاته الفان ومئتان عدًّا .

يرى المؤلف أن فِكَراً أربعاً توجهه في هذا الجزء كما وجهته في الجزئين السابقين . هذه الفِكَر الأربع هي وحدة الموضوع ، وانسانية العلم ، والقيمة العظيمة للجانب الشرقي من التفكير ، ثم الحاجة القصوى الى التسامح والاحسان عند معالجة الموضوعات ... ويبسط المؤلف رأيه في النقطة الثالثة فيقول : « نحن نعلم اليوم أن أصول العلم الغربي (بالغين المعجمة) ـ لا أصول الدين والفن فحسب ـ شرقية مصرية وبابلية وايرانية . ولقد سبق فثبت بالبراهين الوافية في الجزئين السابقين أن ماوصل اليه العرب والشرقيون من التقدم الفكري والعلمي كان في العصور الوسطى على غاية من الأهمية . ان النقلة ـ من اليهود والنصارى والمسلمين (على التجوز !) لم يحملوا الينا خزائن العلم القديم فحسب بل أغْنَوْها ايضاً وأشاعوا فيها حيوية جديدة . ولقد برهنتُ أن ثلاثة قرون على الأقل (من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر للميلاد) شهدت تفوق العلوم عند العرب (ص ٢٠ ـ ٢١) » .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحينما ينفض المؤلف يده من المقدمة يقسم الكتاب قسمين : قسماً يشمل النصف الأول من القرن الرابع عشر ويسميه عصر أبي الفداء ولاوي بن غرسون ووليم اوف أقتام ، ثم قسماً يشمل النصف الثاني منه ويسميه عصر جفري تشومر وابن خلدون وحسداي كراقاس .

تميز النصف الأول من القرن الرابع عشر للميلاد باستمرار النزاع بين الرشدية وخصومها (بين اتباع ابن رشد وبين خصومهم : وابن رشد اكبر فلاسفة الاسلام بلا منازع واحد كبار فلاسفة العالم على الاطلاق) . ولقد جهد القديس توما الاكويني احد كبار الفقهاء النصارى في اوروبة في العصور الوسطى للدفاع عن الاتجاه العقلي للنصرانية بسلاح صنعه ابن سينا والغزالي وابن رشد نفسه ، بينما كان من غايات القديس توما مكافحة فلسفة ابن رشد مكافحه لا لين فيها ، ومع ذلك لم يجد القديس توما بُدًّا من التساهل في بعض جوانب التفكير المسيحي حتى يفسح المجال لشيء من فلسفة ابن رشد ، تلك التي كانت تقوم على أسس عقلية وعلمية لا سبيل الى نُكرها . على أن الثقافة الاسلامية اخذت ، منذ القرن الرابع عشر ، تتضاءل وذلك بعامل التفسخ السياسي في المغرب خاصة وبضعف الروح العربية الاسلامية في الادارة والحرب (راجع ص ١٠١ وما بعدها) .

وعلى الرغم من ذلك فقد ظل امام العرب والمسلمين مجال متسع الاكناف للجري في ميدان العلوم الرياضية والطبيعية على الأخص وخصوصاً في البصريات . ومع ان علماء الاسلام والنصرانية واليهود قد اُستَوَوْا في هذا الميدان وتشابهت فيه جهودهم ، إلا أنهم كلهم قد شربوا من معين واحد هو « كتاب المناظر » لأبي علي محمد بن الحسن البصري المعروف بابن الهيثم (راجع ١٤١) . اما اعظم جغرافيي هذا العصر بين المسلمين وغير المسلمين على السواء فقد كان الملك المؤيد ابا الفداء صاحب حماة ، فقد وصف في كتابه ، « تقويم البلدان » خطوط الطول وخطوط العرض على وجه الدقة او على وجه التقريب (ص ٢٠٠) .. وكذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كثر المؤلفون من المسلمين في التاريخ الطبيعي وتفوقوا في ذلك على غيرهم ثم اهتموا بالتطور خاصة حتى قادهم ذلك الى البحث في طبقات الأرض فأصابوا في كثير من الملاحظات كالمسعودي والبيروني مثلاً (راجع ٢٠٨ — ٢١٣) .

ومثل ذلك كان شأن العرب في الطب والتشريح وعلم وظائف الأعضاء . إن ابرز الاكتشافات في علم وظائف الأعضاء خاصة قد قام بها المسلمون في سورية او في مصر كابن النفيس الذي تُوُفِّيَ في القاهرة عام ١٢٨٨ م قبل ابتداء القرن الرابع عشر بائني عشر عاماً . إن ابن النفيس قد اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل ان يعرف ذلك ميخائيل سرفيت الاسباني بمائتين وخمسة وستين عاماً . ولقد عرف العرب لابن النفيس فضله في ذلك بينما سرفيت الاسباني أُحْرِقَ علناً في جنيفا في سويسره عام ١٥٥٣ م بامر المصلح الديني كلفن . ولا غرو فان الكنيسة كانت تحظر على رجالها الاشتغال بالطب لأن الطب صناعة علمانية لا تتفق مع مقام رجال الدين . اما التشريح فقد كان في اوروبة النصرانية ممنوعاً البتّة . فاذا جئنا الى الاسلام رأينا ان صناعة التشريح قد بلغت فيه الذروة وخصوصاً في المغرب . وما يقال عن الطب والتشريح عامة يقال عن امراض العين خاصة ، فان المسلمين كانوا لا يزالون حتى القرن الثالث عشر قادة العالم في امراض العين (ص ٢٧٠ وما بعدها) .

وكان المؤرخون المسلمون في هذا العصر كثاراً نعد منهم القلقشندي والمقريزي وابا الفداء والنويري وسواهم ممن كانوا على جانب عظيم من الأهمية والشهرة مع كثرة عددهم (ص ٣٠٦ وما بعدها) .

ولقد استمرت اللغة العربية حتى القرن الرابع عشر تحتل مكاناً مرموقاً في عالم التأليف العلمي إذ كانت اللغة الثانية بعد اللغة اللاتينية من حيث الاتساع (ص ٧٠ — ٧١) . اما من حيث التأليف فقد وجب ان تكون بلا ريب أرقى من اللاتينية ، بدلنا على ذلك كثرة ما نقل من كتب العلم والفلسفة في العصور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الوسطى من اللغة العربية الى اللغتين اللاتينية والعبرية (ص ٤٢٦ وما بعدها) .

ومع أن دانتي الليغييري ، شاعر ايطالية العظيم ، لم يكن يعرف اللغة العربية فان كتابه الخالد « الكوميديا الالهية » متأثر بالاسلام الى حد بعيد ، بسورة الاسراء وبالحديث وبقصة المعراج (٤٨٩ وما بعدها) .

وكذلك استمر اثر الفيلسوف ابن رشد بارزاً في القرن الرابع عشر فكان رأسَ أتباع ابن رشد في باريس في النصف الأول من القرن الرابع عشر الفيلسوفُ الفرنسي جان جاندون (ت ١٣٢٨) . وقد عُرِف جاندون بانه « مقلد ارسطو وابن رشد [1] » ، مما يدل اولاً على شدة اعجاب المفكرين بابن رشد ثم على المرتبة العظيمة التي وصل اليها ابن رشد ، حتى ان اسمه كان في العصور الوسطى مقروناً باسم ارسطو في كل مناسبة .

* * *

ومع انتصاف القرن الرابع عشر اخذت الثقافة العربية تخسر شيئاً من قوتها ، ولا غرو فان النصف الثاني من هذا القرن قد شهد ضعف الدولة الاسلامية وخصوصاً في الأندلس . وانك لن تدرك عظمة العرب العلمية حتى تدرك الروح التي كافحوا بها في سبيل العلم . لقد عد بعضهم المعارك (الصغرى والكبرى على السواء) التي خاضها العرب ضد الفرنجة في الأندلس وحدها ، منذ عام ٧١٠ م (حينما نزل العرب على شاطئ الأندلس) الى عام ١٤٩٢ م (حينما غادروا الأندلس نهائياً) ، فكانت نحو ٣٧٠٠ معركة (ص ١٠٢١) . وان امة تكون ايديها مغلولةً بثلاثة آلاف وسبعمائة معركة تنتهي بزوالها عن ارضها وديارها واموالها ثم لا تنسى رسالة العلم المقدسة بل تبلغ بالعلم والتفكير ذروة الرقي والتقدم لأمّة عظيمة حقّا .

(١) في الأصل قرد ارسطو وابن رشد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما اعظم مؤرخ شهد القرن الرابع عشر فهو بلا ريب عبد الرحمن بن خلدون موجد علم التاريخ ومؤسس علم الاجتماع . ولقد وفّاه المؤلف كثيراً من حقه . ويمكن لنا ان نتفهم مقدمة ابن خلدون بوضوح اكثر اذا نحن أضفنا الى المصادر التي اخذ عنها ابن خلدون وذكرها سارطون في الكيمياء خاصة (ص ١١٣٨) رسائل اخوان الصفاء . انه يبدو لنا ان هذه الرسائل قد كانت مصدراً اساسياً لابن خلدون في تاريخه علم الجغرافية والكيمياء وعلم النبات والحيوان على الأخص (وقد اغفل سارطون هذه الرسائل عند الكلام على ابن خلدون) .

ويقسو سارطون (ص ١١٣٨ و ١٧٧٢) على ابن خلدون فيما يتعلق بالبحث في نهر النيجر ، وهو يرى ان ابن خلدون قد أخطأ مع المخطئين ، منذ ايام هورودوتس الرحالة والمؤرخ اليوناني ، في القول بان (النيجر) فرع من نهر النيل . ثم يرى ايضاً ان ابن خلدون[1] يسمي النيجر نهر النيل .

وبعد الرجوع الى مقدمة ابن خلدون نفسها نستطيع ان ندفع عن ابن خلدون جانباً اساسياً من التهمة . يقول ابن خلدون (ص ٤٧ — ٤٨) « فأما نهر النيل فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء .... يسمى جبل القمر[2] .... تخرُج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في اخرى . ثم تخرج انهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة . ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب احدهما الى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم ببلاد مصر .... ويسمى نهر مصر .... ويذهب الآخر منعطفاً الى المغرب ثم يمر على سمته الى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان واسمهم كلها على صفته » . ثم يعود ابن خلدون الى ذكر نهر النيجر مرة اخرى فيذكر ما ذكره اولاً مفصلاً ؛ ثم يتكلم عن البحيرة التي يخرج منها الماء ، فيقول (ص — ٥٥) : « وينقسم ماؤها

(١) راجع طبعة المطبعة الأدبية ببيروت : الطبعة الثالثة ١٩٠٠ م

(٢) القمر بفتح القاف والميم أو القمر بضم القاف وسكون الميم (مقدمة ابن خلدون ٥٥).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بقسمين ، فيمر الغربي الى بلاد السودان مُغَرِّباً ويخرج الشرقي منه ذاهباً الى مصر » .

أجل ، ان ابن خلدون قد أخطأ مع المخطئين حينما قرن منابع النيجر بمنابع النيل . وذلك طبعاً قبل أن يخرج المكتشفون في العصر الحديث للوصول الى منابع الأنهار الحقيقية . ولقد سمى ابن خلدون هذا النهر مرتين نهر السودان وذلك يقابل من حيث التسمية نهر النيجر (لأن كلمة نيجر لاتينية ومعناها الأسود) . فتكون تسمية ابن خلدون اذن ، للنهر تسمية صحيحة ، اذ فصله بها عن نهر النيل وان كان لا يزال يجمع بينهما في الرقعة التي ينبعان منها ، خطأً منه ومن الذين اخذ عنهم . ولا أعلم مما بين يديّ وجه اتهام ابن خلدون بأنه يسمي نهر النيجر نهر النيل .

وما دمنا مع ابن خلدون فلنستوف البحث في فنونه .

كثرت كتب التاريخ في القرن الرابع عشر للميلاد كثرة كبيرة ، ولم تكن في بلاد الاسلام أقل منها في اوروبة « عدداً » وان كانت احسن « نوعاً » . والمؤرخ العظيم في هذا الدور هو عبد الرحمن بن خلدون . ولقد كان من سوء حظ ابن خلدون أنه سبق عصره بآرائه في طريقة كتابة التاريخ ؛ ثم إن آراءه لم يتح لها أن تُعْرَف في الغرب إلا في القرن التاسع عشر أما بين العرب انفسهم فلم ترزق انتشاراً ملحوظاً قط . (راجع ص ١٢٧١) .

على أن ابن خلدون كان عالماً اجتماعياً عظيماً ، بل كان « عالم عصره في الاجتماع » (ص ١٢٧١) ، وأحد مؤسسي علم التاريخ وعلم الاجتماع (ص ١٧٦٧) ، حتى لقد دعي « أبا فلسفة التاريخ وأبا الاجتماع » (ص ١٧٧٠) ، وهو من أوائل الذين أرّخوا تطور العلوم (ص ١٧٧٤) . ولقد كان من عبقرية ابن خلدون أن طوى جميع أوجه الحياة في علم الاجتماع ولم يعدّ الاجتماع علماً موازياً للاقتصاد والسياسة والتشريع مثلاً ، كما كان يعتقد كثيرون من الاجتماعيين حتى بعد ابن خلدون (إذ لم يكن قبله أحد) . فلما أطل القرن العشرين وأخذ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الغربيون بهذا الرأي كأنهم أخذوا برأي ابن خلدون نفسه . وهكذا ثبت عند الغربيين أيضاً ان علم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتشريع والدين والتجارة ليست علوماً متوازية ، ولكنها فروع من علم واحد شامل هو علم الاجتماع . من أجل ذلك وجب أن نعيد النظر في الجملة التي تقول (ص ١٧٧١) : « ولا ينسب ابن خلدون أهمية كبرى للعوامل الاجتماعية وحدها ، بل للعوامل الاقتصادية أيضاً » .

اننا إذا أحببنا أن ننصف ابن خلدون انصافاً تاماً وجب أن تقول : « ولا ينسب ابن خلدون أهمية كبرى للعوامل الاجتماعية وحدها (عامةً) ، بل للعوامل الاقتصادية أيضاً (بوجه خاص) » .

ولقد أنصف المؤلف لما قال (ص ١٧٧٠) : « إنني لا أتردد في القول بأن مقدمة ابن خلدون أعظم كتب التاريخ التي أُلّفت في العصور الوسطى أهمية » ، ذلك لأنها توازي الكتب الحديثة التي وُضِعَتْ في أسلوب التأليف التاريخي » .

ويبدو بوضوح أن المؤلف يريد أن ينصف ابن خلدون ، نرى ذلك في عدد الصفحات التي خصه بها (ص ١٧٦٧ — ١٧٧٩ ، سوى صفحات أُخَرَ متفرقات) وبأحكام المديح التي رأينا بعضها . ولكنه من ناحية ثانية يبدي شيئاً من الاضطراب حينما يقول إن ابن خلدون ذو ميل عقلي شديد (ص ١٧٧٢) وإنه مقاوم للفلسفة العقلية (ص ١٧٧٥) ، أو يقول إن ابن خلدون شديد التدين مما حمله على ان يقبل عقيدة الدين الذي يؤمن به مع كثير من الخرافات المتراكبة حول ذلك الدين (ص ١٧٧٢) . ثم يدهش المؤلف لأن ابن خلدون يرفض الاعتقاد بالكيمياء (تحول المعادن الخسيسة الى معان ثمينة) وبالتنجيم (معرفة المستقبل من النجوم) ، إذ أن ذلك اتجاه عقلي صحيح لا شك فيه . ويستعصي على المؤلف تعليل ذلك فيمضي قائلاً « على أن ابن خلدون يفعل ذلك بدافع ديني لا بنتيجة النقد العلمي (ص ١٧٧٤) . وبهذا المعنى يمكن لأحدنا أن يقول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إن اساس آراء ابن خلدون ليس اجتماعياً بل ديني . وهذا يمكن أن يطبق ايضاً على كل مسلم طيب . وابن خلدون كان واحداً من هؤلاء ومن أتباع الغزالي . . . وعلى هذا يجب ألا نبالغ في قدر عبقرية ابن خلدون . لقد استطاع ابن خلدون أن يكون مجدداً في إطار الفقه الاسلامي فقط . ومع ذلك فإنه لم يتردد في مدى هذا النطاق ، في ان يتساءل ثم يرد على تساؤله هذا بطريقة علمية (ص ١٧٧٥ — ١٧٧٦) » .

ان الاضطراب وفقدان الجزم في هذه الأحكام يعود بلا ريب الى قراءة مقدمة ابن خلدون قراءة سريعة ، وليس بامكان من يؤرخ علوم الأمم في جميع العصور ان يفعل اكثر من ذلك . ثم إن هذا الذي اضطرب فيه المؤلف الذي ننقد هنا كتابه قد اضطرب فيه كثيرون حتى جاء العالم الاجتماعي ساطع الحصري فأصدر « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » في جزئين (عام ١٩٤٣ و ١٩٤٤) وحل ، فيما حل من مشاكل دراسته ابن خلدون ، هذه المشكلة إذ اثبت أن ابن خلدون كان شديد التدين في حياته الشخصية ؛ اما في العلم فلم يكن يمنعه تدينه[1] من قول الحق (والتدين في الاسلام يحث على الحق) . ثم أن لابن خلدون في مقدمته آراء كثيرة تخالف الروايات الدينية مخالفة تامة . فياليت كاتب فصل ابن خلدون في الكتاب الذي ننقده قد اطلع على دراسات العلامة ساطع الحصري وناقش ما فيها كما فعل ، لما اطلع في مجلة الأمالي[2] على مقالة عن « العرب في مقدمة ابن خلدون » (ص ١٧٧٧) . إننا نرجو ان يعيد الدكتور جورج سارطون كتابة الفصل المتعلق بابن خلدون في كتابه القيم .

ولقد اشار المؤلف الى الفيلسوف العربي ابن باجه في هذا الجزء اشارتين عارضتين (ص ٣٨٦ و ٦٠٨) فقال (ص ٦٠٨) : « ان موسى التربوني قد حالل

(١) دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ١٥٠ — ١٢٢

(٢) بيروت ١٩٣٩ السنة الأولى ص ١٦١٤ — ١٦١٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

رسالة تدبير المتوحد لابن باجه باللغة العربية . ونحن لا نعرف آراء ابن باجه الا من هذا التحليل وحده » .

ان هذا الحكم قد كان صحيحاً الى زمن قريب جداً ، ذلك لأن كتب ابن باجه كانت ضائعة . أما الآن فان هذا الحكم يجب ان يتبدل لأن شيئاً من فلسفة ابن باجه في اصلها العربي قد برز الى النور . لقد استطعت انا أن احصل من مكتبة برلين الوطنية على نموذج من مجموع لابن باجه [١] نشرته للمرة الأولى في مجلة الأمالي[٢] . فكانت تلك المرة أيضاً أول مرة نشر فيها لابن باجه نص باللغة العربية . وفي عام ١٩٤٥ حصلت من دار الكتب المصرية في القاهرة على صورة فوتوغرافية لأربع عشرة صفحة يظهر أنها المقالة الأولى من تدبير المتوحد نفسه ، فلما وضعت كتيباً عن ابن باجه [٣] أثبت فيه النصين تامّين كما وجدتهما (ص ٤٨ ـ ٥٨) .

وفي ١٩٤٥ ايضاً نشر المستشرق د . م . دنلوب [٤] موجزاً لقسم من تدبير المتوحد وجده في المكتبة البودليانية . وفي عام ١٩٤٦ نشر المرحوم آسين بلاسيوس قطعة كبيرة [٥] من تدبير المتوحد .

* * *

بقي هناك ملاحظة عارضة :

قال المؤلف : « ويبرز بين الفينة والفينة في مجاري التاريخ ـ ولكن على غير كثرة لحسن الحظ ـ رجال ذوو عبقرية خاصة في الفتوح والتخريب . فكسّر في الاسكندر الكبير وأتيلاّ الذي لُقّب بحق « سوط الله » وفي جنكيز خان وهولاكو .... إن الطرق التي سلكها هؤلاء الرجال كانت كثيرة الشبه

(١) أو من مجموع فيه رسائل لابن باجه

(٢) السنة الأولى ، ص ٣٥٤ – ٣٥٥ (العدد الحادي عشر ، ١٩٣٨) .

(٣) دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة ، رقم ١٦ ، مكتبة منيمنة ، بيروت ، ١٩٤٥ .

(4) D. M. Dunlop in JRAS, April 1945, pp. 63 ff.

(5) Madrid - Granada, 1946.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيما بينها : حرب خاطفة [١] تصحبها وحشية . ولا ريب في أن هؤلاء « الوحوش العظام » لا يَعُدُّون أنفسهم مُحَرِّبين ولكن بنائين « لنظام جديد » . أجل لقد أسس هؤلاء نوعاً من النظام ، لأنهم حينما عملوا عملهم ساد في ملكهم نظام للافناء والموت ... (ص ١١٠١) . ولقد يبدو من الغرابة بمكان أن نتكلم عن الفورر [٢] (الزعيم) المجرد من الانسانية تيمور ... (ص ١٢٧٢) . كان تيمور زعيماً صحيحاً أو « فورر » غشوماً غير هيابة . وكان مقتدراً على أن يوحي الى اتباعه بالاخلاص المطلق له ، مستبداً لجوجاً قاسياً ووحشياً في غضبه . ولقد كان أيضاً واضع خطط ومنفذاً للخطط عبقرياً يدرك فضل السرعة ادراكاً تاماً وفضل التعجيل في الاناخة فوراً بقوة عظيمة وفضل التشتيت . وكذلك كان منظماً عظيماً ، وقديراً على أن يفكر في المصلحة العامة بعد أن يؤمّن مصلحته الخاصة ، وعلى أن يحمي عامة الناس من قطاع الطريق الذين هم أقل منه هو شأناً وكان قادراً على أن يعدل ، اذ امكن ان يكون عدله هذا على حساب الشعوب الأخرى وخصوصاً من أعدائه . وكذلك كان باستطاعته ان يكون جواداً كريماً رِئاء الناس على عادة الشرقيين ، أي أن الأمير يجب أن يكون كريماً حتى الاسراف كيما يُعلن عن قوته وثروته وكرم أصله (١٤٦٨) » .

لقد كان الأجدر ألاّ تتسرب أمثال هذه الجمل الى صفحات هذا المرجع العلمي القيم . انها نتفة ناقم . وان الصفات التي تتدفق من قلم كاتبها هذا لاتنطبق على « أمير » من أمراء العصور الوسطى . ان هذه الصور من الاستبداد الممزوج بالروعة لا يمكن ان تكون الا من نتاج العصور الحديثة . لو أن هذا الجزء العظيم قد صدر قبل عام ١٩٣٣ لما وجدت هذه الجمل اليه سبيلاً !

أما الكتاب عامةً وخاصةً فهو مرجع عظيم في العلوم الرياضية والطبيعية وفي الفلسفة ، ثم هو ، على ما أرى ، الكتاب الوحيد الذي يؤرخ العلوم والفلسفة

(١) استعمل المؤلف اللفظ الألماني Blitzkrieg

(٢) استعمل المؤلف اللفظ الألماني Führer .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عند جميع الأمم من اليابان الى انكلترة الى الولايات المتحدة وفي جميع اللغات من اليابانية الى الصينية فالهندية فالفارسية فالعربية فالعبرية فالتركية فاليونانية فاللاتينية فالايطالية فالافرنسية والانكليزية ، وفي جميع العصور .

ومع أن المؤلف يذكر أن كتابه مهما اتسع فانه لا يتسع الا لعرض تطور العلم والفلسفة عرضاً عاماً ، فان ثمة في الكتاب فصولاً تشبه ان تكون بحوث اختصاص .

ثم اننا نحن العرب واجدون في هذا الكتاب « انصافاً كبيراً » ، فان المؤلف يولي العرب والاسلام جانباً مهماً من اهتمامه ويؤرخ تطور العلم والفلسفة في الاسلام تأريخ فاهم رحب الصدر منصف مما لا تجد مثله عند الكثيرين من علماء الغرب . واذا نحن طالعنا هذا الجزء الذي ننتقده هنا رأينا ان نصيب العرب منه كبير جداً . ولا ريب في ان الكتاب قد ظهر باشراف رجل واحد هو الدكتور جورج سارطون ، ولكنه في الحقيقة مجموع جهود قام بها نفر من أصحاب البحث العلمي وكان اكبرهم نصيباً من هذه الجهود الدكتور سارطون نفسه . وعلى الرغم من ذلك فالكتاب « وحدة تأليفية » ذات اتجاه واحد وغاية واحدة وتنسيق واحد . ومع اعتراف المؤلف نفسه بان عملاً متسع النطاق متشعب المذاهب كهذا الكتاب الذي ننتقده لا يمكن أن يخلو من اخطاء او يَمْرَى عن نقص (الصفحات ج — م ، ٢٦ — ٢٨) ، فان هذا الكتاب يجب أن يُعَدَّ ثقة في بابه .

(بيروت) الدكتور عمر فروخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net